ملامح سردية في معلقة عنترة

د.إسماعيل إبراهيم مصطفى برزنجي

إذَا كَانَ التَّجْنِيسُ الأَدَبيُّ يُشَكِّلُ هَمَّاً عِنْدَ النُّقَّاد عَبْرَ القُرُون لتَحْدِيْد الهُويَّة الإجنَاسيَّة للنَّصّ المُنتَج، فَإنَّ المُزَاوَجَةَ بَينَ أَجنَاس مُتَغَايِرَة مِنْ أبرَز مُنجَزَات الحَدَاثَة في السَّاحَة الأَدَبيَّة المُعَاصِرَة، وَمَعَهَا تَزدَادُ مُشكلَةُ التَّجنِيس غُمُوضَاً وَتَلقَى عِنَايَةً أَكثَرَ عِندَ المُحدَثِينَ مِنَ النُّقَّاد والأُدَبَاء، لأَنَّ إمكَانِيَّةَ التَّلاقُح بَينَ أَجنَاس مُختَلفَة والدَّعوَةَ إلَى تَوسِيع حُدُود الجنس الأَدَبيّ أو إزَالَةَ الحُدُود بَينَ الأَنوَاع تُعتَبَرُ سِمَةَ الحَدَاثَة الأَبرَز.

وَإذَا كَانَتْ هَذه الحَقِيقَةُ لاتَطرَحُ إشكَالاً إجرَائِيَّاً عِندَ النُّقَّاد وَلاتَخلُقُ مُشكلَةً إبدَاعِيَّةً عِندَ مُنتجِي النَّصّ الأَدَبيّ في الأَدَب الحَديث، فَإنَّهَا تُوضَعُ عَلَى المَحَكّ عِندَ اختبَارِهَا في النُّصوص الأَدَبيَّة القَديمَة لاسيَّمَا النُّصُوص الجَاهليَّة، لأَنَّ حُدُودَ الأَجنَاس في الأَدَب القَديم مُمَيَّزَةٌ بشدَّة، لَكنَّ هَذَا لايَمنَعُ إخضَاعَهُ مَرَّةً أُخرَى لمَعَايير النَّقد الحَديث بذَريعَة اختلاف الزَّمَن وَالسِّيَاق الَّذي أُنتجَ فيه، بَل مِنَ الأَجدَى فَحصُ النُّصُوص القَديمَة وَمُقَارَبَتُها بالمَنَاهج الحَديثَة لاستنطَاقهَا وَإيجَاد قيَم جَمَاليَّة أُخرَى فيهَا.

من هَذَا المُنطَلَق تَكُونُ دِرَاسَةُ نَصٍّ شعريّ خَالص يَنتَمي إلَى أَقدَم العُصُور الأَدَبيَّة العَرَبيَّة وَفْقَ مُعطَيَات السَّرديَّة الحَديثَة أمرَاً مُمكنَاً، لأَنَّ السَّردَ لاتَختَصُّ بدرَاسَة النُّصُوص النَّثريَّة فَحَسبُ، بَلْ كَمَا يَقُولُ النُّقَّادُ إنَّهُ يَتَحَكَّمُ في كُلّ خطَاب مَهمَا كَانَ نَوعُهُ، وَلايَقتَصرُ وُجُودُهُ عَلَى الأَجنَاس الأَدَبيَّة(١) ، حَيثُ يُوجَدُ أشكَالٌ لاَحصرَ لَهَا مِنَ السَّرد، فَهوَ يَحضُرُ في الأُسطُورَة وَالنَّقش وَالدِّرَامَا وَالخُرَافَات وَالسِّينَما وَالأَخبَار المَحلِّيَّة، عِلاوَةً عَلَى كُلّ هَذَا التَّنَوُّع اللامَحدُود مِنَ الأَشكَال فَإنَّ السَّردَ يُوجَدُ في كُلّ الأَوقَات وَفي كُلّ الأَمَاكن(٢).

فَإذَا كَانَ السَّردُ بهَذه الرَّحَابَة وَبهَذَا الإطلاَق يُغَطِّي الحَيَاةَ بأوسَع مَعَانيهَا، فَإنَّهُ مِنَ الأَولَى أنْ يُفَسِّرَ لَنَا بَعضَ الظَّوَاهر الَّتي وَرَدَت في الشِّعر وَيُعطيَ بَعضَ المَلامح قيمَةً دَلاليَّةً وَإنْ وُسِمَ بهَا الشِّعرُ الجَاهليّ، لأَنَّ الشِّعرَ أَولَى أن يُحَلَّلَ سَرديَّاً مِنَ الأَشكَال المَذكُورَة، لأَنَّهُ أَلصَقُ بالسَّرد بحُكم الحَقل الأَدَبيّ الَّذي يَنتَميان إلَيه.

لَكنَّ ثَمَّةَ إشكَاليَّةً قَد تَبرُزُ عِندَ مُقَارَبَة الشِّعر بالسَّرديَّة الحَديثَة، وَهيَ أنَّ الشِّعرَ جنسٌ أَدَبيّ لايَكتَملُ مَعَهُ السَّردُ بتَفَاصيله وَلايُعَدُّ خطَابَاً سَرديَّاً نَقيَّاً، لَكنْ مَعَ ذَلكَ لاَنَستَطيعُ نَفيَ السَّرد نهَائيَّاً عَن الشِّعر، لأَنَّ أَنوَاعاً مِنَ الشِّعر يَتأَسَّسُ عَلَى السَّرد، مَثَلاً المَلحَمَةُ كَانَت تُحَقِّقُ قَدرَاً كَبيراً مِنَ السَّرد، وَيَكفي أن نَجدَ إشَارَات من هَذَا القَبيل عِندَ أفلاَطُون حَيثُ يَتَحَدَّثُ عَن وُجُود سَرد بَسيط في خَمريَّات (باخس) (٣).

فيمَا يَخُصُّ الشِّعرَ الجَاهليَّ فَإنَّ نَظرَةً سَريعَةً تُؤَكِّدُ لَنَا أَنَّ ((أَكثَرَ المُعَلَّقات وَالقَصَائد الجَاهليَّة لاَتَخلُو من حَادثَة يَقُصُّهَا الشَّاعرُ، وَلَكنَّهَا لاَتستَقطبُ حَدَثَاً وَاحداً مُتَنَامياً بصرَاع وَحَبكَة وَحوَار))(٤) ، لذَلكَ يَكُونُ البَحثُ عَنْ مَلامحَ سَرديَّة أَدَقَ عَمَليَّة تَحليليَّة للشِّعر الجَاهليّ، لأَنَّهُ لَيسَ عَمَلاً سَرديَّاً مُتَكَاملاً لَكنَّهُ لاَيَخلُو من بَعض عَناصره.

بنَاءً عَلَى هَذَا جَاءَ عُنوَانُ البَحث بالصِّيغَة المَذكُورَة، وَتَظهَرُ المَلامحُ إمَّا في وُجُود عَنَاصر السَّرد أو مُكوِّنَاته أو تَقنيَاته أو الاعتمَاد عَلَى تَقديم السَّرد عَبرَ وَسَائله، وَلاَتُوجَدُ مُجتَمعَةً أو بالصِّيَغ الَّتي حَدَّدَهَا النُّقَّادُ في الأَعمَال السَّرديَّة، بَلْ تُوجَدُ مُنسَجمَةً مَعَ الفَضَاء الدَّلاليّ الشِّعريّ وَالبنَاء الفَنِّيّ لَهُ، فَأينَمَا يَحتَاجُهَا وكَيفَمَا يَحتَاج يَقتَرضُهَا وَيُرَوِّضُ بهَا خطَابَهُ، لأَنَّ السَّرديَّةَ تُحيلُ عَلَى مَجمُوعَة الصِّفَات المُتَعَلِّقَة بالسَّرد وَالأَحوَال الخَاصَّة به وَالتَّجَلِّيَّات الَّتي تَكُونُ عَلَيهَا مَقُولاتُهُ(٥) ، وَبهَذَا المَفهُوم لاَتَقتَصرُ السَّرديَّةُ عَلَى دِرَاسَة العَمَل السَّرديِّ المُتَكَامل، بَلْ تَكونُ فَضَاءً رَحبَاً لتَفسير كُلّ مَا يَتَعَلَّقُ بالسَّرد صفَةً أو حَالَةً مُنفَرِدَةً أو تَجَلِّيَاً لَهُ في أيّ نَصٍّ أَدَبيّ كَانَ.

قصَّةُ فارس وشعريَّةُ السَّرد

إنَّ استثمَارَ آليَّات السَّرد وَتقنِيَّاته في مُعَلَّقَة عَنترَةَ يَأتي عَبرَ أشكَال تَختَلفُ عَن السَّرد الحكَائيّ، لأَنَّ القَصيدَةَ تُحَافظُ عَلَى مُقَوِّمَات في التَّصوير وَالإيقَاع وَالتَّخييل

وَالأُسلُوب الشِّعريّ، بَينَمَا تَميلُ السَّرديَّةُ بالنَّصّ إلَى النَّزعَة الدِّرَاميَّة الَّتي يَكُونُ مَا يَحدُثُ مَدَارَ النَّصّ وَلَيسَ كَيفَ؟ وَمَتَى يَحدُثُ؟ لَكنَّ الشَّاعرَ يَأخُذُ المَتنَ الحكَائيَّ قَاعدَةً أَسَاسيَّةً يَبنِي عَليهَا سَردَهُ الشِّعريَّ وَيَستَمدَّ منهَا أَفكَارَهُ وَرُؤاهُ، وَيُنتِجُ نَصَّاً شعريَّاً يُكَثِّفُ السَّردَ الحكَائيَّ في بُنيَة تُنَاسِبُ ضَرورَات الشِّعريَّة، أيْ تُسهِمُ البُنَى السَّرديَّةُ في انجَاز النَّصّ الشِّعريّ، لَكنَّهَا لاَتَنَالُ من شعريَّة القَصيدَة، بَل تُؤازِرُ العَنَاصرَ الُخرَى لخَلق فَضَاء أكثَرَ جَمَالاً وَتأثيراً.

من هُنَا أَخَذَ عَنتَرَةُ كَشَاعر مُتَمَكِّن كُلَّ وَسَائل الجَمَال لتَوسيع فَضَائه الشِّعريّ، فَبَعدَ الالتزَام بالتَّقليد السَّائد في بنَاء القَصيدَة بالوُقُوف عَلَى الأطلاَل وَإجهَاد النَّاقَة في رحلَة الصَّحرَاء يَبدَأ بسَرد قصَّته إذْ يُبَيِّنُ فيهَا بَلاءَهُ وَفُرُوسيَّتَهُ أثنَاءَ مُحَاوَلَته الوُصُولَ إلَى حَبيبَته، وَيُرسِلُ إليهَا رَسَائلَ فَخريَّةً عَبرَ قَنَاتَين اتِّصاليَّتَين: شَخصيَّة الجَاريَة وَ طَريقَةُ القَصيدَة المَنشودَة.

مَتنُ القصَّة –كَمَا هُوَ غَالبٌ عَلَى الأعمَال السَّرديَّة- يَختَلفُ عَن المَبنَى اللُّغويّ الَّذي تُروَى فيه القصَّةُ، إذْ إنَّ المَتنَ الحكَائيَّ هُوَ مَجمُوعُ الأحدَاث المُتَّصلَة فيمَا بَينَهَا حَيثُ يَقَعُ إخبَارُنَا بهَا خلاَلَ العَمَل، وَالمَبنَى هُوَ الأحدَاثُ نَفسُهَا لَكنْ يُرَاعَى فيهَا ظُهُورُهَا في العَمَل(٦) ، وَهُنَاكَ مَنْ يُسَمِّي المَتنَ الحكَائيَّ بالقصَّة الَّتي هي أحدَاثٌ مُتَسَلسلَةٌ تَتَضمَّنُ شَخصيَّات تَتَدخَّلُ فيهَا وَتَتَسبَّبُ في خَلقهَا، أمَّا المَبنَى الكَائيّ فَيُسمُّونَهُ الخطَابَ باعتبَار أنَّهُ كَيفيَّةُ سَرد تلكَ القصَّة في صياغَات لُغويَّة وَفْقَ مَنطق مُعَيَّن بخيَارات أُسلُوبيَّة تُحدِّدُ الشَّكلَ السَّرديَّ، أي التَّشكيلَ الجَماليَّ الفَنيّ للمَادَّة الحكَائيَّة حَيثُ يَتَجَسَّدُ في اختيار تقنيَّات سَرديَّة مُتَنوِّعة(٧).

وَعَليه فَإنَّ قصَّةَ عَنتَرَةَ هيَ قصَّةُ فُروسيَّة لَهُ حَيثُ تَتَضمَّنُ أحدَاثَاً بُطُوليَّةً قَامَ بهَا وَهُوَ المُسَبِّبُ في وُقُوعهَا، فَفيهَا يَبدُو كَفَارس نَبيل تَامِّ الخُلُق وَالخَليقَة يُنَازِلُ الرِّجَالَ وَيَنَالُ منهُم، وَمن بَينهم رَجُلٌ بَطَلٌ اسمُهُ (ضَمضَم) يَطعَنُهُ عَنتَرَةُ برمحه وَيَجعَلُهُ طُعمَةً للسِّبَاع، وَيُصَابُ فَرَسُهُ في هَذه الحرب وَهُوَ كَانَ أنيسَهُ وَصَاحبَهُ، لَكنْ مَعَ ذَلكَ لاَيَتَأَخَّرُ عَنتَرَةُ عَن الحَرب وَيَتَقَدَّمُ قَومَهُ وَيستَمرّ، أَرَادَ بذَلكَ الوُصُولَ إلَى حَبيبَته لَكنَّهُ لاَيَصلُهَا لوُقُوع الحَرب بَينَهُ وَبَينَ قَبيلَتهَا، لَكنَّ المَبنَى الحكَائيَّ الَّذي جَسَّدَ هَذه القصَّةَ في المُعَلَّقَة انطَبَعَ بطَابَع الشِّعر وَأَثَّرت الشِّعريَّةُ في صياغَة السَّرد وَسَاقَتهُ نَحوَ فَضَائهَا، لذَلكَ يَأتي سَردُ القصَّة في سياق ذكر المَفَاخر الكَثيرَة للشَّاعر من شُرب الخَمر والكَرَم وَالفُرُوسيَّة وَمَجمُوع الصِّفَات الَّتي يُفَاخرُ بهَا الجَاهليُّ الآخَرينَ، وَيَبدَأ السَّردُ الحَقيقيُّ للقصَّة بالبَيت (الثَّالث وَالأربَعينَ) حَيثُ يَقُولُ:

هَلاَّ سَأَلْت الخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالك

إنْ كُنْت جَاهلَةً بمَا لَمْ تَعلَمي(٨)

وَيَنتَهي بانتهَاء المُعَلَّقَة حَيثُ يَستَخدمُ الشَّاعرُ تقنيَّةَ الاسترجَاع في نهَايَة القصَّة، وَهَذَا يَعني أنَّ القصَّةَ في الوَاقع سَواءٌ حَدَثَت أم من نَسج خَيال الشَّاعر قصَّةٌ كَاملَةٌ تَتَوافَرُ فيهَا أَركَانُ القصَّة النُّمُوذَجيَّةُ من حَيثُ البدءُ والعُقدَةُ والنِّهَايَةُ، وَفيهَا بَطَلٌ وَشخصيَّاتٌ وَأحدَاثٌ مُعَيَّنَةٌ في زَمان وَمَكَان مُعَيَّنَين، وَتَخضَعُ للتَّسَلسُل الزَّمَنيّ المَنطقيّ، أَمَّا في الخطَاب فَيَنكَسرُ المَنطقُ وَتَخضَعُ القصَّةُ لجَمَاليَّات المَنطق السَّرديّ وَتقنيَّاته.

من هَذَا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ المَتنَ الحكَائيَّ يَستَغرقُ أكثَرَ من يوم وَيَضُمُّ حَوَادثَ كَثيرَةً وَشُخُوصَاً عَديدَةً، وَهَذَا مَا يُؤَيِّدُهُ قَولُهُ:

عَهْدي به مَدَّ النَّهَار كَأَنَّمَا

خُضِبَ البَنَانُ وَرَأسُهُ بالعظْلَم(٩)

أي يَترُكُ غَريمَهُ الَّذي نَازَلَهُ في مَيَدَان القتَال بَقيَ طَوَالَ النَّهَار بَعدَمَا قَتَلَهُ وَجَسَدُهُ يُدمي كَأَنَّهُ مَخضُوبٌ بذَلكَ النَّبت المَعرُوف، هَذَا علاوَةً عَلَى أحدَاث أُخرَى في أَمَاكنَ مُختَلفَة، لَكنَّ الشَّاعرَ في قَصيدَته يَروي تلكَ القصَّةَ في مَبنَىً حكَائيٍّ لاَيَستَغرقُ أَكثَرَ من اثنَين وثَلاثينَ بَيتاً.

الإيمَاءَاتُ التَّدَاوليَّةُ للسَّارد البَطل

نَظَراً إلَى التَّقسيم المُتَدَاوَل عندَ النُّقَّاد لمُكَوِّنَات العَمَل السَّرديّ (السَّارد – المَسرُود – المَسرُود لَه)، نَستَطيعُ القَولَ إنَّ السَّاردَ هُنَا في مُعَلَّقَة عَنتَرَةَ هُوَ الشَّاعرُ نَفسُهُ وَهُوَ البَطَلُ وَالشَّخصيَّةُ الرَّئيسَةُ، وَذَلكَ جَليٌّ في استعمَاله تعبيرَات لُغويَّةٌتُبرزُ صَوتَهُ كَسَارد وَحيد في القصَّة، هَذه التَّعبيرَاتُ تُومِيءُ للعَاطفَة وَالذَاتيَّة وَالتَّدَاوليَّة وَالبَلاغيَّة، وَإنَّنَا لَنَجدُ استعمَالَ ضَمير المُتَكلِّم في أغلَب الأبيَات حَيثُ يُشيرُ به الشَّاعرُ إلَى نَفسه، وَيَتَحَدَّثُ مُبَاشَرَةً إلَى مَن يُخَاطبُهُ، بذَلكَ يُحَقِّقُ أعلَى دَرَجَةً في البُرُوز وَتَجَلِّياً أكثَرَ في التَّدَرُّج الصَّوتيّ الظَّاهر للسَّارد بحَسَب تَصنيف (جاتمان) (١٠).

لَكنَّ مَا يَلفتُ الانتبَاهَ هُوَ أَنَّ الشَّاعرَ يَبدَأُ سَردَ قصَّته بالتَّوجُّه إلَى مُتَلَقّ بعَينه وَهُوَ (ابْنَةُ مَالك) حَبيبَتُهُ، وَهَذَا يُؤكِّدُ وَعيَ

السَّارد بأحوَال المُتلقّي، وَيَخلُقُ مُنذُ البدء انطبَاعَاً باتّصَال خَاصٌّ مَعَ مُتَلَقٍّ غَائب وَقتَ صُدُور الخطَاب، لَكنَّ السَّاردَ يُخَاطبُهُ في مَوضع المُستَمع (هَلاَّ سَألْت الخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالك)، وَعندَمَا يَكُونُ التَّواصُلُ بَينَ السَّارد وَالمُتَلَقّي أو بَينَ شَخصيَّات في حَدَث مُعَيَّن يَكونُ تَواصُلاً دَاخليَّاً، لأنَّ السَّاردَ يُقيمُ عَلاَقَةً افتراضيَّةً بَينَهُ وَبَينَ المُخَاطَب غَيرُ مُقترنَة بزَمَن مُعيَّن، هَذَا بخلاَف العَلاَقَة القَائمَة بَينَ المؤلّف وَالقَاريء حَيثُ تَقُومُ بَينَهُمَا عَلاَقَةٌ خَارجيَّةٌ مَقرُونَةٌ بزَمَن بزَمَن الكتَابَة وَزَمَن القرَاءَة(١١).

وَعندَمَا يَختَارُ مَن يَحكي القصَّةَ طَريقَةَ سَرد الشَّخص الأوَّل وَيَحكيهَا بوَسَاطَة سَارد عَالَم الحَكيّ الدَّاخليّ الَّذي هُو أَحَدُ شَخصيَّات القصَّة فَإنَّ هَذَا يَعني أنَّ النَّصَّ المَسرُودَ مُتَجَانسٌ، وَيَظهَرُ هَذَا ((إذَا احتَوَتْ جُمَلُ القصَّة الفعليَّةُ ضَمَائرَ المُتَكلّم الأوَّل منْ نَوع (فَعَلْتُ ذَلكَ، رَأيتُ هَذَا، هَذَا مَا حَدَثَ لي) ممَّا يَعني أنَّ السَّاردَ عَلَى الأقَلّ شَاهدٌ عَلَى الأحدَاث المَوصُوفَة))(١٢) ، وَفي المُعَلَّقَة مثلُ هَذه الجُمَل الفعليَّة كَثيرَةٌ بصيَغ مُختَلفَة، عَلَى سَبيل المثَال:

يُخبرُك مَنْ شَهدَ الوَقيعَةَ أنَّني
أغْشَى الوَغَى وَأعفُّ عنْدَ المَغْنَم

جَادَت لَهُ كَفّي بعَاجل طَعْنَة
بمُثَقَّف صَدْق الكُعُوب مُقَوَّم

فَشَكَكْتُ بالرُّمْح الأصَمّ ثيَابَهُ
لَيْسَ الكَريمُ عَلَى القَنَا بمُحْرم(١٣)

هَذه الأبيَاتُ وَغَيرُهَا تُؤكّدُ حُضُورَ السَّارد في الأحدَاث حُضُوراً قَويَّاً وَبَارزاً، بَلْ أكثرُ من ذَلكَ يَضَعُ عَنترَةُ قُرَّاءَهُ في فَضَاء أحدَاث محوَرُهَا الأسَاسيُّ هُو نَفسُهُ كَفَارس وَبَطَل القصَّة، وَلاَيَترُكُ إلاَّ مسَاحَات ضَيِّقَةً لغَيره منَ الشَّخصيَّات، وَهَذَا الظُّهُورُ المُحَدَّدُ مَحكُومٌ بالأعمَال السَّلبيَّة الَّتي تَقُومُ بهَا تلكَ الشَّخصيَّاتُ، ذَلكَ من أجل بَقَائه هُوَ كَبَطَل حَقيقيٍّ محوَريّ، وَتَزيدُ هَذه الحَالَةُ السَّرديَّةُ من بُرُوز السَّارد ومن تَفَرُّده بإدَارَة الأحدَاث، وَلاَيُستَبعَدُ اقترَانُ هَذه الحَالَة بالنَّسَق الفُحُوليّ الَّذي تَكَوَّنَ لَدَى الشَّاعر الجَاهليّ وَاستَمَرَّ في العُصُور الأخرَى، لأنَّ شَخصيَّةَ الفَرد المُتَوَحّد، فَحل الفُحُول ذي الأنَا النَّافيَة للآخَر منَ السِّمَات المُترَسِّخَة في الخطَاب الشِّعريّ، وَمنهُ تَسَرَّبَت إلَى الخطَابَات الأخرَى، وَمن ثَمَّ صَارَت نُمُوذَجاً سُلُوكيَّاً ثَقَافيَّاً يُعَادُ إنتَاجُهُ بمَا أنَّهُ نَسَقٌ مُنغَرسٌ في الوجدَان الثَّقَافيِّ(١٤) ، وَكَأنَّ الشَّاعرَ (عَنترَةَ) أرَادَ أن يَكُونَ البَطَلَ الفَحْلَ الأوحَدَ في قصَّته كَمَا كَانَ الشَّاعرُ الفَحلَ في مَيدَان الشِّعر، إذَن نَستَطيعُ أنْ نَقُولَ إنَّهُ فُحُولَةٌ سَرديَّةٌ دَاخلَ فُحُولَة شعريَّة جَسَّدَت النَّسَقَ الثَّقَافيَّ الجَاهليَّ خَيرَ تَجسيد.

وَممَّا يَلفتُ النَّظَرَ أيضاً فيمَا يَخُصُّ السَّاردَ البَطَلَ تَحَقُّقُ التَّطابُق التَّامّ بَينَهُ وَبَينَ شَخصيَّة عَنترَةَ الحَقيقيَّة، أي الخَلطُ بَينَ الوَاقع التَّأريخيّ وَالعَالَم المُتَخيَّل للسَّرد الشِّعريّ، بذَلكَ يَقتَربُ سَردُهُ للأحدَاث من تَدوين سيرَته الذَّاتيَة وَ روَايَة أحدَاث حَقيقيَّة بأبعَادهَا الوَاقعيَّة، لأنَّ القصَّةَ المَسرُودَةَ في المُعَلَّقَة ليسَتْ قصَّةً خَيَاليَّةً من إبدَاع العَالَم الشِّعريّ وَالمُتَخيَّل للشَّاعر، بَلْ إنَّهَا قصَّةُ وَاقعَة لعَنترَةَ كَإنسَان يَعيشُ في العَالَم الوَقعيّ، ثُمَّ قَامَ الشَّاعرُ بصيَاغَتهَا شعراً، وَيَروِيهَا عَلَى لسَان سَارد يُمَثّلُهُ هُوَ، وَالبَطَلُ في القصَّة هُوَ نَفسُهُ أيضاً، بذَلكَ تَحَقَّقَ التَّطَابُقُ الكُلّيُّ بَينَ هَذه المُكَوّنَات، وَصَارَ السَّردُ مُلتَبساً بالسِّيرَة الذَّاتيَّة وَحَقَّقَ مَا سَمَّاهُ النُّقَّادُ (ميثَاقَ السِّيرَة الذَّاتيَة)(١٥).

لاَشَكَّ أنَّ عَنترَةَ هُنَا يُحَدِّثُنَا عَنْ وَاقعَة تَاريخيَّة في زَمَان وَمَكَان مُعَيَّنَين، وَيَعترفُ أنَّهُ قَامَ بأعمَال وَصَدَرَ عَنهُ الأفعَالُ مَعَ الآخَرينَ ضدَّ شَخصيَّات حَقيقيَّة، وَلاَ تُغَيِّرُ من حَقيقَة هَذه الأمُور صيَاغَةُ القصَّة بطَريقَة سَرديَّة في قَصيدَة تَعتَمدُ أسَاسَاً عَلَى التَّخييل وَتَبتَعدُ عَن الوَاقع وَحَقَائقه المَنطقيَّة وَالعَقليَّة، لأنَّ هَذه القصَّةَ لَو رُوِيَتْ نَثراً لَمَا تَمَتَّعَتْ بالجَمَال وَالرَّوعَة الأدَبيَّين، لأنَّهَا تَكُونُ آنَذَاكَ خطَابَاً سَرديَّاً جنسُهُ السِّيرَةُ الذَّاتيَّةُ، لَكنَّ الشِّعريَّةَ الَّتي تَدَخَّلَت في سَردهَا في هَذه القصَّة أعطَتهَا بُعدَاً تَخييلياً وَجَمَالاً أدَبيَّاً، كَأنَّ الشَّاعرَ أرَادَ خَلطَ الوَاقع بالخَيَال وَروَايَةَ الأحدَاث من خلاَل مُرُورهَا بالعَالَم الشِّعريِّ وانطبَاعهَا بطَابَع ذَلكَ العَالَم الخَاصّ، وَكُلُّ ذَلكَ من أجل إضفَاء طَابَع أُسطُوريٍّ عَلَى القصَّة المَرويَّة وَعَلَى نَفسه كَبَطَل القصَّة.

البُنيَةُ الحكَائيَّةُ وَتقْنيَّاتُ السَّرد

إنَّ التَّقَابُلَ بَينَ زَمَن القصَّة وَزَمَن الخطَاب الَّذي طَرَحَهُ الشَّكلانيُّونَ الرُّوسُ في مَعرض حَديثهمْ عَن التَّمييز بَينَ المَتن وَالمَبنَى الحكَائيَّين، أصبَحَ التَّقَابُلَ الأسَاسيَّ الَّذي يَعتَمدُهُ النُّقَّادُ لدرَاسَة الزَّمَن السَّرديّ، وَمنهُمَا تَنشَأ عَلاَقَاتٌ تَربطُ بَينَهُمَا وَتقنيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ بحَسَب طَبَائع تلكَ العَلاَقَات، فَهُنَاكَ عَلاَقَةٌ تَتَعَلَّقُ بالنِّظَام وَالتَّرتيب الزَّمَنيِّ تَنشَأ منْهَا المُفَارَقَاتُ الزَّمَنيَّةُ، وَعَلاَقَةٌ أُخرَى تَتَعَلَّقُ بالمُدَّة الَّتي تَستَغرقُهَا الأحدَاثُ في كُلٍّ منَ الخطَاب والقصَّة وَأُخرَى تَرتَبطُ بالتَّوَاتُر وَحَالاَت التَّكرَار(١٦).

وَإذَا أَخَذنَا ثُنَائيَّةَ القصَّة وَالخِطَاب في تَحليل الزَّمَن الَّذي وَظَّفَهُ عَنترَةُ في مُعَلَّقته نَرَاهُ لايُتَابِعُ زَمَنَ القصَّة في سَرده للأحدَاث، وَإنَّمَا يَنتَقلُ إلَى طَبيعَة زَمَنيَّة مُجَانسَة لخطَابه الشِّعريِّ، وَيُركِّزُ عَلَى لَحَظَات زَمَنيَّة مُعَيَّنَة تُفيدُ في بَلورَة رُؤيَته، وَيُوَظِّفُهَا في سياق جَمَاليَّات مُعَلَّقته، فَهُوَ يُقدِّمُ وَيُؤَخِّرُ وَيُبطئ وَيُسرعُ، وَيُضَمِّنُ قصَّةً دَاخلَ أُخرَى، لأَنَّ زَمَنَ الخطَاب يأتي بحَسَب الصِّيَاغَات اللُّغويَّة، فَاللُّغَةُ تُبطئ حَركَةَ القَصِّ إذَا شَاءَ القَاصُّ وَقد تُسرعُ مَعَ حَركَة الزَّمَن السَّريعَة، وَفي هَذه الحَالَة تَترُكُ فَرَاغَات زَمَنيَّةً من دُون أن يَشعُرَ المُتَلقِّي بهَذه القَفزَات الزَّمَنيَّة، وَذَلكَ من أجل صيَاغَة أُخرَى للأحدَاث أجمَلَ وَأوقَعَ من حُدُوثهَا خَارجَ الخطَاب، وَتَقُومُ اللُّغَةُ في هَذه الحَالَة بدَور الإيهَام بأنَّ الزَّمَنَ لَم يَنقطعْ منهُ شَيئٌ(١٧).

وَفي هَذَا الإطَار يَلجَأ عَنترَةُ إلَى خَرق زَمَن الأحدَاث من خلال تَوظيف عَلاقَة التَّضمين حَيثُ تَكُونُ هُنَاكَ قصَّةٌ أَصليَّةٌ تَحتَوي عَلَى قصَص فَرعيَّة تُدرجُ ضمنَ القصَّة الأَصليَّة(١٨) ، وَالقصَّةُ الأَصليَّةُ في مُعَلَّقَة عَنترَةَ هي فُرُوسيَّتُهُ وَبَلاؤُهُ في سَاحَة اللقتَال، وَهيَ حكَايَةُ وَقيعَة يَوم وَاحد من أيَّام العَرَب يَحكيهَا لحَبيبَته، يُبَيِّنُ فيهَا حَالَهُ وَمُرُوءَتَهُ وَصفَاته الحَميدَةَ، وَيُشهدُ عَلَى ذَلك مَن مَعَهُ من الفُرسَان:

يُخبرُك مَنْ شَهدَ الوَقيعَةَ أَنَّني
أَغشَى الوَغَى وَأَعفُّ عِنْدَ المَغْنَم(١٩)

أَمَّا القصَصُ الفَرعيَّةُ فَهي أحدَاثٌ مُنفَصلَةٌ حَدَثَت هُنَا وَهُنَاكَ حَيثُ خَصَّصَ لكُلِّ حَادثَة أبيَاتَاً من مُعَلَّقته، وَمَا يَجمَعُ هَذه الأحدَاثَ هُوَ القصَّةُ الأَصليَّةُ الَّتي تَحكي بُطُولَةَ الشَّاعر، وَالفَرقُ بَينَ أَحدَاث القصَّة وَالقصَص الفَرعيَّة هيَ وُجُودُ تَسَلسُل مَنطقيٍّ وَتَنَام تَدريجيّ للأحدَاث دَاخلَ القصَّة مَهمَا كَثُرت تلكَ الأحدَاثُ، وَلاَ يَنفَصلُ عَن بَعضهَا البَعضُ، لَكنْ لكُلِّ قصَّة فَرعيَّة دَاخلَ القصَّة الأَصليَّةاستقلالُهَا وَخُصُوصيَّتُهَا، وَقَد فَعَلَ هَذَا شَاعرُنَا في سَرده حَيثُ يَقُولُ بخُصُوص قصَّة الرَّجُل الَّذي كَرِهَ الأَبطَالُ نزَالَهُ لفَرط بَأسه وَصدق مرَاسه:

وَمُدَجَّج كَرِهَ الكُمَاةُ نزَالَهُ
لاَ مُمْعنٍ هَرَبَاً وَلاَ مُستَسلم
جَادَت لَهُ كَفِّي بعَاجل طَعْنَة
بمُثَقَّف صَدق الكُعُوب مُقَوَّم
فَشَكَكْتُ بالرُّمح الأَصَمِّ ثيَابَهُ
لَيسَ الكَريمُ عَلَى القَنَا بمُحَرَّم
وَفَتَرَكْتُهُ جَزرَ السِّبَاع يَنُشنَهُ

يَقضمْنَ حُسْنَ بَنَانه وَالمعصَم(٢٠)

هَذه الأَبيَاتُ الأَربَعَةُ سَردٌ لحَادثَة القتَال الزَّوجيِّ بَينَ الشَّاعر وَالرَّجُل التَّامِّ السِّلاَح وَشَديد البَأس، لَكنَّ الشَّاعرَ يَغلبُهُ وَيَطعَنُهُ برُمحه الصَّلب فَيَقتُلُهُ وَيَجعَلُهُ طُعمَةً للسِّبَاع كَمَا يَكُونُ الجَزرُ طُعمَةً للنَّاس، وَتَكُونُ هَذه الأحدَاثُ القَليلَةُ قصَّةً صَغيرَةً دَاخلَ القصَّة الأَصليَّة، وَلاَ تَكُونُ تَطَوُّراً للأحدَاث الَّتي تَأتي بَعدَهَا، لأَنَّهُ لَيسَ هُنَاكَ تَسَلسُلٌ مَنطقيٌّ وَتَعَالُقٌ بَينَهَا وَبَينَ القصَّة الَّتي تَليهَا وَهي نزَالُهُ مَعَ رَجُل آخَرَ ضَربَهُ بسَيفه وَهَتَكَ درعَهُ ثُمَّ طَعَنَهُ برُمحه وَبسَيفه المُهَنَّد:

وَمشَكَّ سَابغَة هَتَكْتُ فُرُوجَهَا
بالسَّيْف عَنْ حَامي الحَقيقَة مُعْلم
رَبذ يَدَاهُ بالقدَاح إذَا شَتَا
هَتَّاك غَايَات التِّجَار مُلَوَّم
لَمَّا رَآني قَدْ نَزَلْتُ أُرِيدُهُ
أَبْدَى نَوَاجذَهُ لغَير تَبَسُّم
عَهْدي به مَدَّ النَّهَار كَأَنَّمَا
خُضبَ البَنَانُ وَرَأسُهُ بالعظْلَم
فَطَعَنْتُهُ بالرُّمح ثُمَّ عَلَوتُهُ
بمُهَنَّد صَافي الحَديدَة مخذَم(٢١)

كَمَا يَبْدُو منَ الأَبيَات أَنَّهُ لَيسَ هُنَاكَ عَلاقَةٌ بَينَ هَذَا الرَّجُل وَذَاكَ الَّذي سَبَقَ القَولُ عَليه، فَهَذَا بَطَلٌ طَويلُ القَامَة عَظيمُ الأَعضَاء كَأَنَّهُ شَجَرَةٌ عَظيمَةٌ أُلبسَتْ ثيَابَاً، وَفي النِّهَايَة يَقتُلُهُ وَيَترُكُهُ في سَاحَة المَعرَكَة ليَبقَى طُولَ النَّهَار فيهَا مُخَضَّباً بالدِّماء.

ثُمَّ تَأتي قصَّةٌ أُخرَى مُستَقلَّةٌ عَن القصَّتَيْن الأُخرَيَين، لَكنَّ مَوضُوعَهَا هُوَ فُرُوسيَّةُ عَنترَةَ وَإقدَامُهَا في الحَرب حَيثُ تُدرجُ ضمنَ القصَّة الأَصليَّة، وَهيَ كَمَا تَبدُو الحَلقَةُ الأَخيرةُ من سلسلَة بُطُولاته وَأَشَدُّهَا فَتكَاً وَصُعُوبَةً، لأَنَّ الشَّاعرَ يَفقدُ فيهَا فَرَسَهُ نَتيجَةَ إصَابَة صَدره برمَاح الأَعدَاء وَتَلَطُّخه بالدَّم، لَكنْ مَعَ ذَلكَ يُواصلُ عَنترَةُ قتَالَهُ وَيَقفُ بوَجه جَمع كَبير من أَعدَائه وَهُوَ في مُقَدِّمَة أَصحَابه حَيثُ يُنَادُونَهُ مُستَغيثينَ به مُعَوِّلينَ عَليه، وَيَقُولُ في ذَلكَ:

في حَومَة الحَرْب الَّتي لاَ تَشْتَكي
غَمَرَاتهَا الأَبْطَالُ غَيْرَ تَغَمْغُم
إذْ يَتَّقُونَ بيَ الأَسنَّةَ لَمْ أَخِـمْ
عَنْهَا وَلَكنّي تَضَايَقَ مُقْدَمي
لَمَّا رَأَيْتُ القَومَ أَقْبَلَ جَمْعُهُـمْ
يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّم(٢٢)

بهَذه الأَبيَات يُكملُ عَنترَةُ قصَّةَ فُرُوسيَّته وَشدَّةَ بَأسه في مَيدَان المَعرَكَة وَهوَ وَحدَهُ الَّذي يُعَوَّلُ عَليه في أَوقَات الشِّدَّة وَالضِّيق، وَكَعَادَة الفُرسَان إذْ هُمْ أشدَّاءُ في الحَرب ضُعَفَاء في الحُبِّ يَتَذَكَّرُ عَنترَةُ حَبيبَتَهُ وَيُرسلُ جَاريَتَهُ لتَعرفَ أحوَالَها.

وَمنَ التِّقنيَّات الزَّمَانيَّة الَّتي

اعتَمَدَ عَلَيهَا عَنترَةُ في سَردِهِ هَذَا تقنيَّتَا الاسترجَاعِ والاستشراف، وَهُمَا مُرتَبِطَتَانِ بِالمُفَارَقَاتِ الزَّمَانيَّةِ حَيثُ في الاستشرَافِ يَستَبِقُ السَّاردُ الأَحدَاثَ فَيَذكُرُ مَا سَيَحدُثُ منهَا أو يُمَهِّدُ لَهَا أو يَتَنَبَّأُ بِمَا قَد يَأتِي، أمَّا في الاسترجَاعِ يَستَذكِرُ أَحدَاثًا مَضَت وَانتَهَى زَمَانُهَا الحِكَائيّ لَكِنَّ السَّاردَ يُعِيدُ ذِكرَهَا في زَمَنِ الخِطَابِ(٢٣) ، وَيَقُولُ في ذَلِكَ:

وَلَقَد خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُر
لِلحَربِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنَيْ ضَمْضَمِ
الشَّاتِمَيْ عِرْضِي وَلَمْ أَشتِمْهُمَا
وَالنَّاذِرَيْنِ إِذَا لَمْ أَلْقَهُمَا دَمِي
إِنْ يَفْعَلاَ فَلَقَد تَرَكْتُ أَبَاهُمَا
جَزَرَ السِّبَاعِ وَكُلَّ نَسْرٍ قَشْعَمِ(٢٤)

في هَذِهِ الأَبيَاتِ الثَّلاثَةِ يُقَدِّمُ تَصَوُّرَهُ لِلمُستَقبَلِ بِأَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يَرَى عِقَابًا لابْنَيِ ضَمْضَمِ اللَّذَيْنِ يَشتِمَانِهِ، وَقَولُهُ (وَلَقَد أَخَافُ) يُوحِي بِأَنَّ حَدَثًا مِثلَ هَذَا قَد يَحدُثُ في المُستَقبَلِ وَقَد لاَ يَحدُثُ، وَلاَ يَرتَبِطُ هَذَا الحَدَثُ بِمَا جَرَى سَردُهُ في مُعلَّقَتِهِ بِذَلِكَ يَكُونُ استِشرَافًا خَارِجِيًا لِتَجَاوُزِهِ خَطَّ نِهَايَةِ القِصَّةِ، أي الإِطَارَ الزَّمَنِيَّ المُحدَّدَ لِلحِكَايَةِ الأَصلِيَّةِ(٢٥).

وَفي البَيتِ الأَخِيرِ يَستَرجِعُ حَدَثًا يَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ دَاخِلِيًا وَأَن يَكُونَ خَارِجَ الحِكَايَةِ:

إِنْ يَفْعَلاَ فَلَقَد تَرَكْتُ أَبَاهُمَا
جَزَرَ السِّبَاعِ وَكُلَّ نَسْرٍ قَشْعَمِ

إِذَا كَانَ الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرَهُ في بِدَايَةِ قِصَّتِهِ هُو (ضَمْضَمُ) الَّذِي قَتَلَهُ وَتَرَكَهُ (جَزَرَ السِّبَاعِ) فَيَكُونُ الاسْتِرجَاعُ دَاخِلِيًا، لأَنَّهُ يُكَرِّرُ الحَدِيثَ عَمَّا حَدَثَ دَاخِلَ الإِطَارِ الزَّمَنِيِّ المُحَدَّدِ لِلقِصَّةِ الأَصلِيَّةِ وَمَا يُرَجِّحُ هَذَا التَّأوِيلَ هُوَ تَشبِيهُ المَقتُولِ بِالجَزَرِ المَأكُولِ:

تَرَكْتُ أَبَاهُمَا جَزَرَ السِّبَاعِ(٢٦)
فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّبَاعِ يَنَشْنَهُ(٢٧)

لَكِنْ مَا يَجعَلُ الكَلاَمَ يَحتَمِلُ وَجهًا آخَرَ مِنَ التَّأوِيلِ هُوَ قَولُهُ (وَكُلَّ نَسرٍ قَشعَم) حَيثُ لاَنَجِدُ هَذِهِ العِبَارَةَ عِندَ حَدِيثِهِ عَنِ الرَّجُلِ التَّامِّ السِّلاَحِ الَّذِي ذَكَرَهُ في بِدَايَةِ قِصَّتِهِ، وَإِذَا أَخَذنَا الكَلاَمَ بِهَذَا التَّأوِيلِ يَكُونُ الاسْتِرجَاعُ خَارِجِيًا، لأَنَّهُ يَذكُرُ حَادِثَةً لَمْ يَسبِقِ الحَدِيثُ عَنهَا في إِطَارِ القِصَّةِ المَسرُودَةِ، وَإِنَّمَا عَن طَرِيقِ الاسْتِرجَاعِ يَأتِي بِهَا السَّاردُ لِيُقَوِّيَ بِهَا بُطُولَتَهُ وَيُكمِلَ سِلسِلَةَ رِوَايَاتِهِ عَنِ الأَحدَاثِ البُطُولِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ ذِكرُهَا في الإِطَارِ الزَّمَنِيِّ المُحَدَّدِ لِلقِصَّةِ، وَهَذَا الوَجهُ أَقرَبُ إِلَى الصَّوَابِ، لأَنَّ الاستِشرَافَ أَيضًا خَارِجِيّ.

وَمِنَ التَّجَلِّيَّاتِ الزَّمَنِيَّةِ السَّرديَّةِ في المُعَلَّقَةِ مَا يَتَعلَّقُ بِالمُدَّةِ الزَّمَنِيَّةِ، وَهُوَ أَيضًا يُقَاسُ عَلَى الفَرقِ بَينَ زَمَنِ القِصَّةِ وَزَمَنِ السَّردِ، أي الوَتِيرَةُ السَّرِيعَةُ أَو البَطِيئَةُ الَّتِي تُعرَضُ مِن خِلاَلِهَا الأَحدَاثُ، فَإِذَا قَارَنَّا زَمَنَ السَّردِ بِزَمَنِ القِصَّةِ رَأَينَا إِيجَازَ الأَحدَاثِ فِيهِ بِسُرعَةٍ أَكبَرَ مِمَّا عَلَيهِ في الحَقِيقَةِ، فَهُوَ (إِجمَالٌ) أو (تَلخِيصٌ)، وَهُوَ حَرَكَةٌ سَرديَّةٌ تُلَخِّصُ أَحدَاثًا وَقَعَت في عِدَّةِ سَاعَاتٍ أو أَيَّامٍ أو سَنَوَاتٍ في جُملَةٍ وَاحِدَةٍ أو جُمَلٍ أو فَصلٍ(٢٨) ، وَالهَدَفُ مِن هَذَا هُوَ مُرُورٌ سَرِيعٌ عَلَى فَتَرَاتٍ زَمَنِيَّةٍ أو تَقدِيمٌ عَامٌّ لِلمَشَاهِدِ وَالرَّبطُ بَينَهَا دُونَ ذِكرِ تَفَاصِيلَ غَيرِ لاَزِمَةٍ وَأَحدَاثٍ لاَتَخدِمُ الخِطَابَ، وَكَذَلِكَ الاكتِفَاءُ بِالإِشَارَةِ السَّرِيعَةِ إِلَى ثَغَرَاتٍ زَمَنِيَّةٍ وَمَا وَقَعَ فِيهَا مِن أَحدَاثٍ(٢٩) ، وَهَذَا مَا فَعَلَهُ عَنتَرَةُ عِندَمَا أَرَادَ تَلخِيصَ مَا وَقَعَ في يَومٍ وَاحِدٍ بِجُملَةٍ وَاحِدَةٍ أو بَيتٍ شِعرِيّ:

عَهْدِي بِهِ مَدَّ النَّهَارِ كَأَنَّمَا
خُضِبَ البَنَانُ وَرَأْسُهُ بِالعِظْلِمِ(٣٠)

هُنَا يُقَدِّمُ الشَّاعِرُ مَشهَداً يُبرِزُ فِيهِ صُورَةَ المَقتُولِ طُولَ النَّهَارِ لِيَبقَى المَشهَدَ الأَبرَزَ بَينَ مَا وَقَعَ في ذَلِكَ اليَومِ، وَيَترُكُ التَّفَاصِيلَ الأُخرَى الَّتِي لاَتَخدِمُ خِطَابَهُ السَّرديَّ، وَذَلِكَ مِن أَجلِ بَقَاءِ عَينِ المُتَلَقِّي عَلَى هَذَا الحَدَثِ دُونَ أُخرَى، وَالحَرَكَةُ السَّرديَّةُ هُنا وَاضِحَةٌ في ذِكرِ أَحدَاثِ يَومٍ كَامِلٍ في بَيتٍ شِعرِيّ وَاحِدٍ.

الحِـــوَارُ

يُعَدُّ الحِوَارُ أَهَمَّ المَلاَمِحِ الَّتِي يُعرَفُ بِهَا العَمَلُ السَّرديُّ وَمِن أَبرَزِ أَسَالِيبِهِ الَّتِي يَعتَمِدُهَا لِمَا يُؤَدِّي مِنْ وَظَائِفَ مُتَعَدِّدَةٍ فِيهِ، كَالإِيهَامِ وَالإِخبَارِ وَرَسمِ مَلاَمِحِ الشَّخصِيَّاتِ وَالإِسهَامِ في بِنَاءِ الحِكَايَةِ، فَضلاً عَنْ أَنَّهُ مَوطِنٌ مِن أَهَمِّ مَوَاطِنِ تَعَدُّدِ الأَصوَاتِ(٣١) ، إِذْ يَختَلِطُ أَصوَاتُ المُتَحَاوِرِينَ وَشَخصِيَّاتٍ ثَانَوِيَّةٍ بِصَوتِ السَّارِدِ أو البَطَلِ الرَّئِيسِ، وَقَلَّمَا وَجَدنَا الشُّعَرَاءَ القُدَمَاءَ يَتَّخِذُونَهُ في بِنَاءِ قَصَائِدِهِم لِكَونِهِ أُسلُوباً سَرديًّا بِامتِيَازٍ، لَكِنَّ عَنتَرَةَ اعتَمَدَ عَلَيهِ في مُعَلَّقَتِهِ لِيَكُونَ سَردُهُ لِلأَحدَاثِ تَنَاوباً بَينَ القَصِّ وَالحِوَارِ لِخَلقِ فَضَاءٍ أَكثَرَ جَمَالاً وَكَثَافَةً دَلاَلِيًّا، وَلِتَكتَمِلَ البُنيَةُ السَّرديَّةُ الَّتِي شَغَلَ مَا يُوازِي نِصفَ المُعَلَّقَةِ.

وَلِلحِوَارِ ثَلاَثَةُ أَنمَاطٍ مِنْ حَيثُ العَلاَقَةُ بَينَ المُتَحَاوِرِينَ، فَإِذَا كَانَت العَلاَقَةُ غَيرَ مُتَكَافِئَةٍ بِسَبَبِ جَهلِ أَحَدِ الطَّرَفَينِ مَا يَعلَمُهُ الآخَرُ يَكُونُ الحِوَارُ نَقلَ المَعَارِفِ وَالأَخبَارِ مِمَّن يَعلَمُهَا إِلَى مَن لاَ يَعلَمُهَا، وَقَد يَكُونُ الحِوَارُ جَدَلِيًّا بَينَ المُتَكَافِئَتَينِ في العِلمِ وَقَد يَكُونُ سِجَالِيًّا(٣٢) ، فِيمَا يَخُصُّ مَا وَرَدَ

مِنَ الحِوَارِ فِي المُعَلَّقَةِ فَهُوَ مِنَ النَّوعِ الأَوَّلِ إِذْ يَقُولُ:

هَلاَّ سَأَلْتِ الخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِك
إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
إِذْ لاَ أَزَالُ عَلَى رِحَالَةِ سَابِحٍ
نَهْدٍ تَعَاوَرُهُ الكُمَاةُ مُكَلَّمِ(٣٣)

الحِوَارُ هُنَا بَيْنَ الشَّاعِرِ السَّارِدِ وَبَيْنَ الحَبِيبَةِ المَسْرُودِ لَهَا، وَالعَلاَقَةُ غَيْرُ مُتَكَافِئَةٍ بَيْنَهُمَا، لأَنَّ الشَّاعِرَ يُحَدِّثُهَا عَنْ أَحْدَاثٍ وَيَنْقُلُ إِلَيْهَا أَخْبَاراً وَمَعْلُومَاتٍ هِيَ لاَ تَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئاً، وَالشَّاعِرُ أَدْرَى بِذَلِكَ (إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لاَ تَعْلَمِي)، وَتَكُونُ القِصَّةُ بِكَامِلِهَا إِخْبَاراً لَهَا، لأَنَّهَا لَمْ تَسْأَلِ الفَرَسَانَ عَنْ حَالِ الشَّاعِرِ.

وَجَانِبٌ آخَرُ مِمَّا يَخُصُّ هَذَا الحِوَارَ هُوَ أَنَّهُ حِوَارٌ غَيْرُ مُبَاشِرٍ، لأَنَّ طَرَفَ المُتَلَقِّي غَيْرُ حَاضِرٍ لَحْظَةَ صُدُورِ السُّؤَالِ مِنَ المُتَكَلِّمِ وَلَحْظَةَ إِخْبَارِهِ بِمَعْلُومَاتٍ وَأَحْدَاثٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِالشَّاعِرِ، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الحِوَارِ يُؤَدِّي (وَظِيفَةً سَرْدِيَّةً تَدْفَعُ بِالأَحْدَاثِ إِلَى الأَمَامِ، وَتُمَكِّنُ الكَاتِبَ مِنْ ضَغْطِ الأَحْدَاثِ الكَبِيرَةِ وَاخْتِصَارِ مَا يَرَاهُ غَيْرَ ذِي فَائِدَةٍ نَوْعِيَّةٍ عِنْدَ إِيرَادِهِ دَاخِلَ النَّصِّ، لأَنَّ غَرَضَ الكَاتِبِ فِي أَسَاسِ فِعْلِهِ الإِبْدَاعِيِّ الفَنِّيِّ لَيْسَ حِكَايَةَ مُحَادَثَةٍ بَلْ تَوْصِيلَ جَوْهَرِهَا)) (٣٤)، إِذاً، الغَرَضُ هُنَا لَيْسَ المُحَاوَرَةَ وَجْهاً لِوَجْهٍ، بَلْ يُرِيدُ الطَّرَفُ الأَوَّلُ إِيصَالَ جَوْهَرِ الحِوَارِ إِلَى الطَّرَفِ الثَّانِي فِي أَيِّ وَقْتٍ تَلَقَّى الخِطَابَ، وَ لاَ يَدْرِي الشَّاعِرُ هُنَا أَتَتَلَقَّى حَبِيبَتُهُ خِطَابَهُ أَصْلاً أَمْ لاَ؟ لَكِنَّهُ يُبَثُّهَا فِي قَصِيدَتِهِ كَي يُعْطِيَهُ صِفَةَ الدَّيْمُومَةِ.

وَهُنَاكَ نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الحِوَارِ يُسَمَّى الحِوَارَ التَّنَاوُبِيَّ، وَهُوَ الكَلاَمُ المُبَاشِرُ بَيْنَ المُتَحَاوِرِينَ حَيْثُ تَتَنَاوَبُ فِيهِ شَخْصِيَّتَانِ أَوْ أَكْثَرَ الحَدِيثَ مِنْ دُونِ تَدَخُّلِ السَّارِدِ، وَهُوَ أَكْثَرُ أَنْوَاعِ الحِوَارِ تَدَاوُلاً وَانْتِشَاراً فِي الأَعْمَالِ السَّرْدِيَّةِ(٣٥)، وَقَدِ اسْتَعْمَلَهُ عَنْتَرَةُ فِي سَرْدِهِ حَيْثُ يَبْعَثُ جَارِيَتَهُ لِتَعْرِفَ أَحْوَالَ حَبِيبَتِهِ وَتَبْحَثَ إِمْكَانِيَّةَ الوُصُولِ إِلَيْهَا، إِذْ يَقُولُ:

فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي فَقُلْتُ لَهَا اذْهَبِي
فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِي وَاعْلَمِي
قَالَتْ رَأَيْتُ مِنَ الأَعَادِي غِرَّةً
وَالشَّاةُ مُمْكِنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمِ
وَكَأَنَّمَا التَفَتَتْ بِجِيدِ جَدَايَةٍ
رَشَإٍ مِنَ الغِزْلاَنِ حُرٍّ أَرْثَمِ(٣٦)

وَاضِحٌ مِنْ هَذِهِ الأَبْيَاتِ أَنَّ الحِوَارَ مُبَاشِرٌ لِصُدُورِ الكَلاَمِ مُبَاشَرَةً مِنَ المُتَكَلِّمِ الأَوَّلِ إِلَى الثَّانِي وَرَدِّ الثَّانِي عَلَيْهِ وَهُمَا يَتَحَاوَرَانِ وَجْهاً لِوَجْهٍ، وَفِي هَذِهِ الحَالِ يَكُونُ السَّارِدُ طَرَفاً فِي الحِوَارِ لَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَى مَعْرِفَةٍ بِمَا سَيَقَعُ، وَلاَ يَعْرِفُ شَيْئاً عَنِ الحَبِيبَةِ، بَلْ تَأْتِي الجَارِيَةُ هَذِهِ المَرَّةَ بِأَخْبَارٍ تُخْبِرُ بِهَا السَّارِدَ، وَهَذَا عَكْسُ مَا حَصَلَ فِي النَّوعِ الأَوَّلِ مِنَ الحِوَارِ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ صِيَغٌ فِعْلِيَّةٌ مِثْلَ (فَقُلْتُ لَهَا) و(قَالَتْ....)، وَبِمَا أَنَّ طَرَفَيِ الحِوَارِ مَوْجُودَانِ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ صَارَ الحِوَارُ تَبَادُلاً لِلمَعْلُومَاتِ بِطَرِيقَةِ الأَخْذِ وَالرَّدِّ، أَمَّا فِيمَا سَبَقَ مِنَ الحِوَارِ مِنَ النَّمَطِ الأَوَّلِ فَصَارَ السَّارِدُ عَارِفاً بِكُلِّ شَيْءٍ يُلَقِّنُ بِهَا المَسْرُودَ لَهَا الغَائِبَةَ وَهِيَ بِمَثَابَةِ المُتَلَقِّي الافْتِرَاضِي لِلخِطَابِ.

الخَـاتِـمَـةُ

تَبَيَّنَ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ مُعَلَّقَةَ عَنْتَرَةَ تَتَمَتَّعُ بِبُنْيَةٍ فَنِّيَّةٍ خَلِيطَةٍ مِنَ الشِّعْرِيَّةِ وَالسَّرْدِيَّةِ، وَلَجَأَ الشَّاعِرُ إِلَى اقْتِرَاضِ تِقْنِيَّاتِ السَّرْدِ وَوَسَائِلِهِ وَإِبْرَازِ ظَوَاهِرَ قِصَصِيَّةٍ لِتَرْوِيضِ خِطَابِهِ الشِّعْرِيِّ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ خَلْقِ فَضَاءٍ أَكْثَرَ جَمَالاً وَشِعْرِيَّةً، وَتَكْثِيفٍ أَكْثَرَ لِلدَّلاَلَةِ مِنْ خِلاَلِ المَيْلِ إِلَى نَزْعَةٍ دِرَامِيَّةٍ بِأَخْذِ المَتْنِ الحِكَائِيِّ قَاعِدَةً يَبْنِي عَلَيْهَا سَرْدَهُ الشِّعْرِيَّ، فَقَدْ أَسْهَمَتِ البُنْيَةُ السَّرْدِيَّةُ فِي إِنْجَازِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ وَمُؤَازَرَةِ النُّصُوصِ الأُخْرَى.

وَقَدْ أَكَّدَ عَنْتَرَةُ حُضُورَهُ القَوِيَّ فِي مُعَلَّقَتِهِ سَوَاءٌ عَنْ طَرِيقِ الخِطَابِ الشِّعْرِيِّ أَمْ عَبْرَ البُنْيَةِ السَّرْدِيَّةِ الَّتِي سَانَدَتْهُ فِي بِنَاءِ المُعَلَّقَةِ، فَهُوَ ظَهَرَ كَشَاعِرٍ فَحْلٍ مُتَفَرِّدٍ شِعْرِيّاً، وَكَسَارِدٍ وَبَطَلٍ أَوْحَدَ سَرْدِيّاً، وَدَارَتِ الأَحْدَاثُ حَوْلَهُ وَتَطَوَّرَتْ مِنْ أَجْلِ إِبْرَازِ بُطُولَتِهِ وَفُرُوسِيَّتِهِ، وَهُوَ المُتَكَلِّمُ وَالصَّوْتُ الأَبْرَزُ يَنْسِجُ قِصَصَهُ وَيُعْطِي حَيَاتَهُ بُعْداً أُسْطُورِيّاً خَارِجَ الزَّمَانِ وَالسِّيَاقِ الاجْتِمَاعِيِّ، وَلاَ يُمْكِنُ لِهَذَا أَنْ يَحْدُثَ إِلاَّ مِنْ خِلاَلِ تَوْسِيعِ البُنْيَةِ الفَنِّيَّةِ لِلقَصِيدَةِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي اعْتَادَتْ أَنْ تَقُومَ عَلَى عَنَاصِرَ شِعْرِيَّةٍ، لَكِنَّ عَنْتَرَةَ كَسَرَ هَذِهِ البُنْيَةَ لِيَأْخُذَ مِنَ السَّرْدِ مَا يَخْدِمُ هَدَفَهُ هَذَا، فَقَدْ خَرَجَتْ مُعَلَّقَتُهُ نَتِيجَةً لِذَلِكَ بِمَلاَمِحَ خَاصَّةٍ انْفَرَدَتْ بِهَا بَيْنَ نَظِيرَاتِهَا، وَهِيَ مَلاَمِحُ نَصٍّ شِعْرِيٍّ يَتَجَاوَزُ مَا حُدِّدَ لَهُ فِي السَّلِيقَةِ الفَنِّيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ مِنْ أَجْلِ إِنْتَاجٍ شِعْرِيَّةٍ خَاصَّةٍ مُتَضَمِّنَةٍ أَنْسَاقاً مِنَ الثَّقَافَةِ الجَاهِلِيَّةِ.

كَمَا أَكَّدَ المَنْهَجُ المُتَّبَعُ فِي البَحْثِ جَدَارَتَهُ فِي قِرَاءَةٍ حَدِيثَةٍ لِنَصٍّ قَدِيمٍ انْطِلاَقاً مِنْ حَقِيقَةٍ أَنَّ النُّصُوصَ الإِبْدَاعِيَّةَ لاَ يَحُدُّهَا

الزَّمَنُ وَلاَ يَكُونُ حَاجِزاً أَمَامَ دِرَاسَتِهَا، مَادَامَت قَد صَدَرَت من سَجِيَّة إنسَانِيَّة وَطَبِيعَة النَّفس البَشَرِيَّة، فَهِيَ تَبقَى مَادَّةً أَسَاسِيَّةً لقرَاءَات مُتَعَدِّدَة بِوَسَائِلَ وَآلِيَّات تُحَاوِلُ اكْتِشَافَ المَكَامِنِ الدَّفِينَةِ أو قِرَاءَةِ النُّصُوصِ مِن زَوَايَا أُخرَى.

الهَوامِش

١ . ينظر: تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص، (محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٥)، ص١٣٠.

٢ . ينظر: علم السرد – مدخل إلى نظرية السرد، تأليف: يان مانفريد، ترجمة: أماني أبو رحمة، (دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١١)، ص٥٥.

٣. ينظر: جمهورية أفلاطون، ترجمة: حنا خباز (دار الأندلس، بيروت، د.ت)، ص١٤٣.

٤ . الأصول الدرامية في الشعر العربي، د.جلال الخياط (دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٢)، ص٦٦.

٥ . ينظر: موسوعة السرد العربي، عبدالله إبراهيم (المؤسسة العربيى للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥)، ص١٠.

٦ . ينظر: نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، مجموعة مؤلفين، ترجمة: إبراهيم الخطيب (منشورات مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت،١٩٨٢)، ص١٨٠.

٧. ينظر: علم السرد، يان مانفريد، ص٥١-٥٢، وتقنيات السرد في النظرية والتطبيق، آمنة يوسف (دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ١٩٩٧)، ص٢١.

٨ . شرح المعلقات السبع، الإمام عبدالله بن أحمد الزوزني، تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي (شركة أبناء شريف الأنصاري، بيروت، ٢٠٠٨)، ص٢١١.

٩ .شرح المعلقات السبع، ص٢١٤.

١٠ . ينظر: علم السرد، ص١٨.

١١ . ينظر: المصدر نفسه، ص١٤-١٦.

١٢ . نفسه، ٢١.

١٣ . شرح المعلقات السبع، ص٢١٢-٢١٣.

١٤ . ينظر: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبدالله الغذامي (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥)، ص٩٣-٩٤.

١٥ . ينظر: معجم السرديات، مجموعة مؤلفين، إشراف: محمد القاضي (دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠)،ص٤٤٦.

١٦ . ينظر: الشعرية، تزفيتان تودروف، ترجمة:شكري المخبوت ورجاء سلامة (دار توبقال، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٠)، ص٤٨-٥٠، وخطاب الحكاية (بحث في المنهج)، جيرار جينيت، ترجمة: محمد معتصو وآخرون (المجلس الأعلى للثقافة، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٠)، ص٤٦-٤٧.

١٧ . ينظر: نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، نبيلة إبراهيم (النادي الأدبي، الرياض، ١٩٨٠)، ص٤٣.

١٨ . ينظر: مقولات في السرد الأدبي، تودوروف، ترجمة: سبحان الحسين وصفا فؤاد (اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ١٩٩٢)، ص٥٧.

١٩ . شرح المعلقات السبع، ص٢١٢.

٢٠ . المصدر نفسه، ص٢١٢-٢١٣.

٢١ . نفسه، ص ٢١٤-٢١٥.

٢٢ . نفسه ، ص٢١٧.

٢٣ . ينظر: خطاب الحكاية، جيرار جينيت، ص٦١ و ص٧٧.

٢٤ . شرح المعلقات السبع، ص٢١٩-٢٢٠.

٢٥. ينظر: خطاب الحكاية، ص٧٧.

٢٦ . شرح المعلقات السبع، ص٢٢٠.

٢٧. المصدر نفسه، ص٢١٣.

٢٨ . ينظر: خطاب الحكاية، ص١٠٩.

٢٩ . ينظر: بناء الرواية، سيزا قاسم، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ (الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤)، ص٥٦.

٣٠ . شرح المعلقات السبع، ص٢١.

٣١. ينظر: معجم السرديات، ص١٥٩.

٣٢ . ينظر: المصدر نفسه، ص١٦٠

٣٣ . شرح المعلقات السبع، ص٢١١.

٣٤ . مقولات في السرد الأدبي، تودوروف، ترجمة: سبحان الحسين وصفا فؤاد (اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ١٩٩٢)، ص٩١.

٣٥ . ينظر: الحوار القصصي، ص٤١-٤٢.

٣٦. شرح المعلقات السبع، ص٢١٥-٢١٦.

قَائِمَــةُ المَـصَــادِر

- الأصول الدرامية في الشعر العربي، د.جلال الخياط (دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٢).
- بناء الرواية، سيزا قاسم، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ (الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤).
- تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص، (محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٥).
- وتقنيات السرد في النظرية والتطبيق، آمنة يوسف (دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ١٩٩٧).
- جمهورية أفلاطون، ترجمة: حنا خباز (دار الأندلس، بيروت، د.ت).
- مقولات في السرد الأدبي، تودوروف، ترجمة: سبحان الحسين وصفا فؤاد (اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ١٩٩٢).
- وخطاب الحكاية (بحث في المنهج)، جيرار جينيت، ترجمة: محمد معتصو وآخرون (المجلس الأعلى للثقافة، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٠).
- شرح المعلقات السبع، الإمام عبدالله بن أحمد الزوزني، تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي (شركة أبناء شريف الأنصاري، بيروت، ٢٠٠٨).
- الشعرية، تزفيتان تودروف، ترجمة:شكري المخبوت ورجاء سلامة (دار توبقال، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٠).
- علم السرد – مدخل إلى نظرية السرد، تأليف: يان مانفريد، ترجمة: أماني أبو رحمة، (دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١١).
- معجم السرديات، مجموعة مؤلفين، إشراف: محمد القاضي (دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠).
- مقولات في السرد الأدبي، تودوروف، ترجمة: سبحان الحسين وصفا فؤاد (اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ١٩٩٢).
- موسوعة السرد العربي، عبدالله إبراهيم (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥).
- نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، مجموعة مؤلفين، ترجمة: إبراهيم الخطيب (منشورات مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت،١٩٨٢).

- النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبدالله الغذامي (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥).
- نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، نبيلة إبراهيم (النادي الأدبي، الرياض، ١٩٨٠).